الفصل الثانى عشر

رؤيــة «الآخــر»

obeikandl.com

obeikandl.com

أحد المظاهر المشوهة عند التصدى لمناقشة عقيدة مختلفة، هو رؤية «الآخر». يدفعنا كبرياؤنا ومصلحتنا الشخصية ـ فى أغلب الأحوال ـ لأن نرى الآخرين بشكل سلبى. وبمجرد أن تصبح وجهة النظر السلبية هذه هى طريقتنا فى التفكير، ننسى أن نفرق بين «الصواب» و«الخطأ» فى معالجتنا للآخرين. رأى الفرعون فى مصر القديمة اليهود بوصفهم «الآخر»، وبالتالى أساء التعامل معهم. وبالرغم من أن الحضارة المصرية كان لها آثار عظيمة، وكتابة ومعمار وفنون راقية، تُحسب من مفاخرها، فإن معاملتها اللا إنسانية لليهود، ألقيت عليها بظل مظلم. والأمر صحيح أيضًا فيما يتعلق بالحضارة اليونانية القديمة والإمبراطورية الرومانية، فبرغم الإنجازات الضخمة، فقد بقيتا فى منزلة أقل بسبب سوء معاملة «الآخر».

حين كانت الإمبراطورية الرومانية فى حالة صعود، جاء المسيح عيسى. وبمجرد ظهور المسيح تمت معاملته «كآخر». وكأن الألم والمعاناة وصلب المسيح(*) لم يكن كافيًا، فقد قام الرومانُ باتباع سياسة التمييز العنصرى ضد أتباعَ المسيح وعذبوهم لكونهم «الآخر»(٣٧٣).

فى القرن الرابع، اعتنق الإمبراطور قسطنطين، ومن تبعه من الأباطرة الرومان المسيحية وجعلوا منها ديانة الدولة. وبعد أن أصبح للمسيحية نفوذ، أصبح كلٌّ من اليهود والمؤمنين بالديانة العامة الرومانية [القديمة] يمثل «الآخر». لقد عوقبوا وعذبوا واضطهدوا بسبب ديانتهم. كانت الإمبراطورية الرومانية قوة عظمى فى ذلك الوقت، كان المسيحيون أقلية داخل الإمبراطورية ولكن بقدرة الحكام من خلفهم، قرر المسيحيون ـ يقودهم رجال الدين ـ تحويل الجماهير الرومانية إلى الديانة المسيحية. فى

(*) طبقًا للعقيدة المسيحية، كما بيّن الكاتب فى الهامش (٣٧٣).

ظل هذه الحماسة الدينية، قاموا بإرهاب المواطنين الرومان الذين مارسوا ديانتهم العامة. لقد هاجمهم الغوغائيون المسيحيون ودمروا مذابح معابدهم ومقدساتهم. لقد كان يتم التمييز ضد غير المسيحيين بشكل صريح وعلنى. لقد فرضت عليهم الغرامات طبقا لقوانين غير عادلة، وتعرضوا للسجن والتعذيب والإعدام أيضًا[٣٧٤]. لقد استخدمت الدولة سلطتها لهدم المعابد والأضرحة المقدسة للديانة الرومانية العامة «. . . و قد أخذت مواقعهم للأغراض المسيحية»[٣٧٥]. وهكذا انتشرت المسيحية بسرعة عبر الإمبراطورية الرومانية. وسريعًا ما طوت أوروبا كلها تحت جناحيها، وعلى هذا أصبحت المسيحية ترى كديانة غربية على الرغم من أنها نشأت أصلاً فى الشرق. لقد نجحت المسيحية فى تحويل الجماهير الرومانية، ولكنها استمرت فى اضطهاد اليهود بسبب رفضهم للتحول للمسيحية. كان كراهية اليهود والتمييز ضدهم، تاريخيًا، السمة المميزة للأصولية المسيحية. وفى سرده للاضطهاد الذى تعرض له اليهود من قبل المسيحيين المتعصبين كتب أبا إيبان فى كتابه «التراث: الحضارة واليهود»، أنه فى عام ١٠١٢م تحول ابن العالم اليهودى البارز، جيرشوم بن يهوذا (٩٦٠-١٠٢٨) « بالإكراه للمسيحية»[٣٧٦]. لم يكن جيرشوم شخصًا عاديًا، كان يحظى بالتبجيل الرفيع لمكانته العلمية وورعه، وكان المجتمع اليهودى الأوسع يطلق عليه اسم شعبى هو«رابينو(حاخامنا) . . .»[٣٧٧]. والآن إذا ما أجبر المسيحيون المتعصبون ابن إحدى الشخصيات اليهودية الدينية البارزة على التحول، فإن ذلك من شأنه أن ينبئ العالم شيئًا ما عن مستوى كراهيتهم وعدم تسامحهم مع «الآخر». يشير أبا إيبان إلى صور الثناء على جيرشوم من قبل علماء الدين اليهود البارزين فى الكلمات التالية:

«رابينو جيرشوم، فلينعم عليك بذكرى الصالحين والقديسين، من أضاء عيون المنفى، ومن نعتمد جميعا عليه، والذى يعتبر كل اليهود الأشكناز هم أتباع أتباعه. .»[٣٧٨].

كان للإسلام، الذى كان يبزغ فى الشرق، وجهة نظر أخرى فى اليهود، متسقة مع الوضع الخاص «لأهل الكتاب». طبقا للإسلام، يعد كل المنتمين للإيمان الإبراهيمى، مثل اليهود والمسيحيين والمسلمين هم «أهل كتاب»، وبالتالى فإنهم يستحقون أن يعاملوا بالأحسن، وأن تصان كرامتهم ويمنحوا الحرية الدينية[٣٧٩]. لقد منح أتباع

عيسى وموسى الحرية الدينية الكاملة فى الحضارة الإسلامية، واحترم الإسلام إيمانهم ودياناتهم. قارن بين الاضطهاد الذى ذكرناه آنفًا لليهود وتحولهم القصرى للمسيحية بتعليقات أبا إيبان عن التجربة والحياة اليهودية فى العالم الإسلامى:

قدمت الحياة تحت الحكم العربى «قبل أى شىء آخر، مجالاً واسعًا للطاقات الروحانية المبدعة. كيف يمكننا بخلاف ذلك أن نشرح عُلا الطاقات الإبداعية، وكمال الجمال فى أعمال سولومون بن جابريول، موسى بن عزرا، ويهوذا هاليفى، وكلهم فى إسپانيا القرنين الحادى والثانى عشر، وفى مصر كان هناك موسى بن ميمون، أو رامبان الذى ولد أيضا فى إسپانيا. وصل اليهود فى بعض المناطق فى الإمبراطورية العربية، إلى قمم روحانية لم يصلوا إليها تحت الحكم المسيحى فى الشتات»[٣٨٠].

يسمى أبا إيبان معاملة الحضارة الإسلامية لليهود فى إسپانيا ومصر الإسلاميتين خلال الفترة من (٩٠٠-١٢٠٠ بعد ميلاد المسيح) «العصر الذهبى لليهود»[٣٨١]. أدى عدم التسامح مع اليهود وممارسة الضغط عليهم من قبل المسيحيين للتحول للمسيحية، إلى جميع أنواع الاضطهاد والتمييز ضد اليهود فى المسيحية ـ أضف إلى ثقافة الكراهية الدينية السابقة من قبل المسيحيين المتعصبين، الموجة [أو المودة، أى الموضة] الحالية لتشويه الإسلام والمسلمين من قبل دوائر معينة فى الغرب، وستكون لديك وصفة جاهزة الصنع لتبنى أحلام المدافعين عن صراع الحضارات ـ تمتع اليهود، على الجانب الآخر، لكونهم «أهل كتاب» بالاحترام والحرية الدينية والقبول الاجتماعى فى بلاد المسلمين وازدهرت الحضارة اليهودية هناك.

لم يقتصر الأمر فقط فى المراكز العظيمة للحضارة الإسلامية على الحرية الدينية والقبول الاجتماعى، ولكن أيضًا على الفرص للقفز على السلم الاجتماعى الذى كان متاحًا أمام اليهود، وكانوا قادرين على الوصول لمناصب عليا، وخدمة المجتمع والإسهام فى حل مشاكل مجتمعهم وحضارتهم الخاصة. إن أحد هذه الأمثلة من بين أمثلة كثيرة، هو قصة هاسداى بن شپروت. عين عبد الرحمن الثالث خليفة إسپانيا (٨٩١-٩٦١) هاسداى كطبيب فى بلاطه. معلقًا على النفوذ والمنصب اللذين تمتع بهما هاسداى فى ظل الحكم الإسلامى فى إسپانيا، كتب أبا إيبان:

«كان تصرفه من وجهة نظر التاريخ اليهودى، بعيد المدى. . رفع الخليفة هاسداى بن شپروت، طبيب بلاطه، لمنصب مدير إدارة الضرائب ولدور المستشار الموثوق به والمبعوث الخاص. لقد كان هاسداى هو من أدار المفاوضات الدقيقة التى أفضت إلى إبرام معاهدات السلام مع ليون وناڤار فى نهاية النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى.

تماما مثلما وضع عبد الرحمن نفسه فى مستوى معادل مع خلفاء بغداد ومصر، بتأسيس الحكم السياسى الذاتى لإسپانيا المسلمة، فقد سعى هاسداى بن شپروت بشكل متعمد، كقائد للمجتمع اليهودى فى إسپانيا المسلمة، لإنهاء خضوع اليهود لبابل. لقد عين العالم موسى بن هانوخ (٩٦٥م) حاخام قرطبة الذى رأس اليشيڤا (أكاديمية حاخامية) وقام بكتابة «responsa»، حتى لا يتجه اليهود الإسپان إلى حاخامات الشرق، من أجل الحصول على إجابات على أسئلة عن القانون اليهودى. صادق هاسداى الشعراء وساعد العلماء. كطبيب ممارس، ناصر العلوم والمهن العلمية الأخرى»[٣٨٢].

أسس الإسلام فى نموذجه الخاص بـ«أهل الكتاب»، لمبدأ الاعتراف والاحترام المتبادل تجاه الحضارات الأخرى للإيمان الإبراهيمى. بعد الحرب العالمية الأولى، كان تأسيس عصبة الأمم فكرة الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون، ولكن أمريكا لم تستطع أن تحشد الإرادة السياسية للالتحاق بها، مما أدى إلى انهيار المنظمة. ولقد حدث الأمر ذاته مع الأمم المتحدة ـ فحينما تركت الولايات المتحدة منظمة الأمم المتحدة، أصبحت المنظمة قليلة الحظ و عاجزة عن العمل، وحينما أرادت لها الولايات المتحدة أن تعمل، حدث ذلك. إن هذا أمر حقيقى، وسيظل كذلك؛ لأن الولايات المتحدة هى القوة المسيطرة الوحيدة فى زمننا هذا. فى مساعيها لفهم ديناميات العالم وتحديد مسار عملها فى عصر ما بعد الحرب الباردة، يقدم مفكرو الولايات المتحدة وخبراؤها، العديد من التأويلات للحقيقة والتصورات عن المستقبل.

تدافع الشخصيات الإيڤانجليكية القيادية مثل جيرى فالويل، وپات روبرتسون وأمثالهم عن مثل تلك التصورات من خلال التصريحات المشبعة بكراهية الإسلام والمسلمين. يجب أن يتذكر المسلمون أنهم لا يمثلون العالم المسيحى الغربى برمته،

فهناك أغلبية مسيحية صامتة، عندما يُعدون ردودهم على تلك التصريحات، أن چيرى فالويل وپات روبرتسون وأمثالهما، بما فى ذلك فى الولايات المتحدة، التى تحترم الإسلام وتريد أن تحتفظ بعلاقات جيدة مع المسلمين. يستوجب أخذنا هذه الحقيقة بعين الاعتبار على العالم الإسلامى أن يطور ردًا تعليميًا وعقلانيًا للرد على هؤلاء القادة الإيڤانچليكيين، حيث إن ما يقولونه يوضح نقص معلوماتهم وفهمهم للإسلام. فى حقيقة الأمر، يقود الجهل فيما يخص «الآخر» إلى الخوف، الذى يثمر الشكوك، والشكوك تفضى إلى الكراهية. ولهذا، فبشكل جزئى ساهم فشل المفكرين المسلمين فى الوصول إلى القيادة المسيحية الأصولية فى خوفهم وكراهيتهم للمسلمين والإسلام. يجب على الأقل، على مجموعة مختارة من المفكرين المسلمين (والذين تتوافر فيهم خلفية متعددة المعارف) أن تدرس المسيحية بتركيز خاص على الإيڤانجليكية، والوصول إليهم لإزالة شكوكهم والمفاهيم الخاطئة التى لديهم، وذلك من خلال حوار بناء من الناحيتين النظرية والتطبيقية معًا. فى هذه العملية، سوف يستنير المفكرون المسلمون أيضًا بمعرفة أعمق عن المسيحية، وينبغى أن يشاركوا هذا التنوير مع المجتمع الإسلامى الأكبر. إن التحدى الماثل أمام المسلمين هو الوصول للأغلبية المسيحية الصامتة، وتحديد الطرق والوسائل لتطوير فهم وتعاون أفضل معهم. إن التصور الآخر الذى يتم ترويجه هو صراع وصدام الغرب مع الحضارة الإسلامية، فهناك من تخدم مصالحهم عن طريق مثل هذا النوع من التفسير، كما بيّن هنتنجتون:

« تكمن أسباب تجديد الصراع بين الإسلام والغرب على هذا فى الأسئلة الأساسية المتعلقة بالسلطة والثقافة. من الذى سيحكم؟ من سيأخذ دور المحكوم؟. إن القضية المركزية للسياسة التى قام لينين بتعريفها هى جذور الصراع بين الإسلام والغرب»[٣٨٣].

يستمر هنتنجتون فى القول:

«طالما أن الإسلام سيبقى إسلامًا (وهو ما سيحدث) وأن الغرب سيظل غربًا (وهو ما يحوطه شكوك أكثر)، فسوف يستمر الصراع الأساسى بين الحضارتين العظميين وأساليب الحياة فيهما فى تحديد علاقتهما فى المستقبل، بالطريقة نفسها التى حددها فى الأربعة عشر قرنًا الماضية»[٣٨٤].

حينما قمنا بالتعليق على إطار هنتنجتون فيما سبق، كنا نريد أن ندرك أن هنتنجتون أو فى هذه الحالة أى فرد، له مطلق الحق والحرية لأن ينطق بأفكاره. ولكن قبول حق شخص ما للتعبير عن أفكاره لا يعنى أنه حينما يمارس هذا الحق، فإننا سنقبل نتيجته كأمر مسلم به؛ لأنها قد تكون خاطئة. إن هذا التمييز بين الصواب والخطأ لهو الأمر الحاسم هنا.

لقد اعتقد لينين أن الملكية الخاصة تملى طبيعة توازن القوة فى المجتمع وتحدد: من سيحكم؟ ومن سَيُحكم؟. بالنسبة له، يقود نظام مبنى على الملكية الخاصة إلى الصراع الطبقى بين الطبقة العاملة والبرجوازية. لقد استخدم هذا الإطار القائم على الصراع لتعريف العلاقة بين الشيوعية والرأسمالية التى تقودها الولايات المتحدة. والآن، باستخدام هذا الإطار اللينينى للصراع الطبقى ولغة الحرب، يطور هنتنجتون نموذجه لصراع الحضارات. تم تطوير هذا النموذج ضمن إطار منهجى ماركسى ـ لينينى ـ هنتنجتونى. فهو يقوم بتعريف العلاقة بين الإسلام والغرب بنفس الروح والنغمة. لو قبلنا هذا الإطار التحليلى، فإنه بإمكان السيد هنتنجتون وأمثاله إذن، أن يبرروا غدا بعض الصراعات الأخرى، بل وأن يزعزعوا استقرار العالم. على سبيل المثال، باستخدام المنهاج ذاته، غدا، سيقوم أتباعهم بمجادلة أن هتلر قام بتحديد علاقة البشر على أساس العرق واعتقد أن عرق(x) هو الذى يحكم بينما عرق (y) يجب أن يكون محكومًا. باستخدام هذا التحليل الهتلرى للعلاقات عبر ـ العرقية، قد يحاول بعض الهنتنجتونيين الدفاع عن العلاقات عبر العرقية بين البيض (المسمون الأفضل) والملونين (المسمون ببقية البشر) من خلال الجدل بأنه فى الألفية الجديدة سيحكم الأفضل، ويكون الباقى هم المحكومين. أن نستخدم هذا الإطار التحليلى لتعريف العلاقة بين الأعراق والحضارات وإضفاء الشرعية عليها من خلال تشويه حقائق/ أحداث التاريخ هو ظلم بيّن للفهم العلمى للتاريخ والإنسانية، كما أن له قدرة كامنة على تهديد كل من الكرامة الإنسانية والسلام العالمى. وبشكل مشابه، هناك خطر من وقوع بعض الساذجين فى فخ تطبيق الإطار اللينينى القائم القائمة على الصراع، على العلاقة بين الإسلام والغرب فى الألفية الجديدة. من يؤمن بهذا المدخل، مخطئ وغير علمى.

إذا كان ينبغى تعريف العلاقة بين هاتين الحضارتين (الإسلام والغرب)، فإذن هناك طريقة علمية واحدة لفعل ذلك، وذلك من خلال استخدام البنية الواضحة للعلاقات عبر الحضارية فى نظام الاعتقاد فى كلّ من الحضارتين. طالما أننا نتحدث عن العلاقة

بين الحضارة الإسلامية والغرب (المسيحى) ، فإن الإسلام لديه فى نظام الاعتقاد مبدأ واضح وصريح ، والذى يمنح كلاً من اليهود والمسيحيين وضع «أهل الكتاب» . يعنى الوضع الاعتراف والاحترام الكامل لمعتقدات وهوية أهل الكتاب . من أجل تأسيس علاقة عبر حضارية صحية ، ينبغى لكل من المسيحيين والمسلمين أن يعرفوا وجهات نظرهم كل عن الآخر ، وبشكل خاص بعد الإفصاح عن نظرية صدام الحضارات وأحداث الحادى عشر من سبتمبر . ستكون مثل هذه الممارسة مساعدة لكلّ من الجماهير العريضة فى كل من الحضارتين ، وسوف تصفى الأجواء بالنسبة للشكوك الجديدة التى برزت على نحو غير متوقع فى الأعوام القليلة الماضية .

ولهذا ، ففى ضوء منهج الإسلام بالنسبة لأهل الكتاب ، تختلف العلاقة بين المسلمين والمسيحيين واليهود كثيراً جداً عن تلك التى أفصح عنها نموذج الماركسية ـ اللينينية ـ الهنتنجتونية . وعلى هذا ، فإن صيغة هنتنجتون ، فى هذا السياق ، ليست علمية ولا حقيقية ، وليست بالتالى صحيحة كمبدأ إرشادى فى مناقشة العلاقات بين الإسلام والغرب فى القرن الواحد والعشرين . مع ذلك ، فبروح التعاون وفريق العمل ، سيبقى تعريف وطبيعة العلاقة بين الإسلام والغرب غير مكتملة حتى يقوم الغرب نفسه بتحديد رؤيته وتصوره عن هذه العلاقة . ستكون الصورة النهائية التى سيتم الاتفاق عليها واستيعابها من قبل الجميع ، تركيبة من هاتين الرؤيتين . سيكون من الأفضل لكل الأطراف المشاركة أن تكون هناك صورة تجمع ما بين كلتا الرؤيتين . يكمن ضعف هنتنجتون فى أنه لم يقدر مبدأ الإسلام فيما يتعلق بأهل الكتاب ، ولا قام بتحديد رؤية الغرب أو المسيحية لعلاقته بالإسلام . يستحق هذا الخطأ المنهجى أن يتم تصحيحه من قبل كلّ من المسلمين والغرب . يمكن تقدير نقطة إيجابية واحدة نشأت من أفكار هنتنجتون ، هى إدراك أن كلتا الحضارتين تحتاج للتفاعل على المستويين الفكرى والفلسفى كما تم تحديده فى السابق .

من أجل أن نصل بالقضية إلى نتيجتها المنطقية ، سنورد فى الحال تعليقًا علميًا على منهجية هنتنجتون فى تحديد العلاقة بين الغرب والإسلام من خلال الادعاء باستخدام الحقائق التاريخية من أجل هذا الغرض . قد يكون المنهج الماركسى ـ اللينينى ـ الهنتنجتونى الخاص بالعلاقات بين الإسلام والغرب قد انتهجه تاريخيون ،

منظرون/ ممارسون آخرون، وقد برروه باستخدام الحقائق التاريخية. لا ينبغى أن يندهش المرء لأن يجد فى صندوقهم الأسود الخاص بالتاريخ بعض الحقائق التى قد تشير إلى الصراعات بين الإسلام والغرب. ينبغى على المرء أن يتذكر أن التاريخ يعتمد على الحقائق وتفسيراتها، ولكن قد يختار المؤرخ أن يجمع ويشير فقط إلى نوع من الحقائق التى تؤيد وتدعم تحيزاته، ويتجاهل كل الحقائق الأخرى التى تدحض موقفه. تعليقا على هذا التحيز المنهجى، يقول المؤرخ إدوارد كار :

«قد تكون صورتنا الذهنية منتقاة مسبقًا، وقدرت لنا سلفًا، ليس بقدر كبير من الصدفة، وإنما من قبل بعض الناس الذين تشربوا برؤية معينة، واعتقدوا أن الحقائق التى دعمت هذه الرؤية كانت تستحق الاحتفاظ بها»(٣٨٥).

تظهر تلك الحقيقة حينما نرى من يحبون الترويج لفكرة الصراع بين العالم الإسلامى والغرب ويقدمون فقط الحقائق والتفسيرات من التاريخ التى تدعم موقفهم.

كان لكار قول أخير فى هذا التحيز :

«كان من المعتاد القول إن الحقائق تتحدث عن نفسها. إن هذا، بالطبع، غير صحيح. الحقائق تتحدث فقط حينما يقوم المؤرخ باستدعائها. إنه هو الذى يقرر أى الحقائق يمنحها المستوى الأدنى، وبأى ترتيب أو سياق. لقد كان، كما أعتقد، أحد شخصيات پيراندللو هو القائل أن الحقيقة هى مثل كيس لن يقف معتدلاً إلا حينما تضع فيه شيئًا ما»(٣٨٦).

إذا ما قمنا فقط بنقد هنتنجتون والمستشرقين بسبب الرؤية المشوهة لإحدى الحضارتين عن الأخرى، فسوف نفقد بهذا المنهج موضوعية النقاش. لقد ساهمت الثقافة الإسلامية التقليدية حول المسيحية والغرب بنصيب عادل لإدراك المسلمين السلبى بشأن الغرب. كانت التجربة الاستعمارية، والظلم الفادح الذى صاحبها، والمآسى الناتجة عنها، بالإضافة إلى الحملات الهجومية للحملات التبشيرية المسيحية فى بلاد المسلمين لتحويل المواطنين المحليين إلى الديانة المسيحية، كلها كانت مأساوية للغاية وبغيضة لدرجة أن السكان المحليين لم يكونوا بحاجة لإقناع إضافى ليخبرهم كيف تم معاملتهم بشكل سيئ على يد المستعمرين. عبر القائد الكينى جوموكنياتا، عن

استياء المواطنين المحليين بقوله إنه عند مجيء الرجل الأبيض، كان ذلك الرجل الأبيض يمتلك الكتاب المقدس، وكان السكان المحليون يمتلكون الأرض. الآن يملك السكان المحليون الكتاب المقدس والرجل الأبيض أصبح يمتلك أراضيهم.

ولهذا فإن الهجوم ذا الشعبتين الذى شنه الاستعماريون والذى استهدف كلاً من الاقتصاد والمعتقد الخاص بالتابعين المُستعمَرين قد استدعى بشكل طبيعى رد فعلهم. استجاب العلماء الإسلاميون التقليديون بتحذير رفقائهم المسلمين من مذهب «الثالوث» المسيحى فى مقابل «وحدانية» الله (التوحيد) فى الإسلام. لقد كان ذلك الأمر يمثل جدلاً فكريًا حول القضايا اللاهوتية فى كلتا الديانتين، وكان أمرًا لازمًا. على الرغم من ذلك ظهرت المشكلة حينما بقى فهم المسلمين لما يتعلق بالمسيحية والغرب مقصورًا على هذه القضية المحدودة فقط، ولم تتوسع أكثر من ذلك لتتضمن مظاهر أخرى من الثقافة المسيحية والغربية، والحضارة، وأنظمة الحياة والحكم. ولهذا، فإن الجدال العنيف أصبح مسيطرًا فى كل حضارة حول رؤية كل منهما «للآخر». بالرغم من أنه فى كلتا الحضارتين كانت هناك أقلية صغيرة أكثر حصولاً على المعلومات عن «الآخر»، وكان لها رؤية متوازنة عنه، فقد بقيت هذه المجموعة صغيرة محصورة، ولم تكن قادرة على أن يكون لها أى تأثير مهم فيما يتعلق بتحدى الجدال العنيف، حيث إن الجماهير، التى توافرت لديها معلومات قليلة عن الحقيقة، قد وقعت تحت سيطرة الكراهية والحكايات المرعبة ـ التى كانت الغرض الوحيد من واضعى خطة الجدال العنيف.

تصادفت بداية فترة ما بعد الاستعمار مع بداية الحرب الباردة، والأغلبية الواسعة للعلماء المسلمين والدول الإسلامية وقفت بجانب الولايات المتحدة فى الصراع ضد الشيوعية. لقد استمرت شراكتهم مع الولايات المتحدة فى هذا السياق خلال فترة الحرب الباردة. مثل چيرى فالويل[٣٨٧]، اتخذ العلماء المسلمون موقفًا يفيد بأن الشيوعية هى تفسير مادى للحياة حيث نفت كل الأديان والله، ولهذا فإنه ينبغى معارضتها من قبل الإسلام والمسلمين، وعلى هذا الأساس لم تقم المملكة العربية السعودية بتأسيس أى روابط ديبلوماسية مع الاتحاد السوفييتى، واشتركت پاكستان مع الولايات المتحدة فى تطويق الأرض الشيوعية من خلال الالتحاق بالتحالفين

العسكريين الاستراتيچيين «سياتو»[٣٨٨] و«سينتو»[٣٨٩]. كان ذلك من الأسباب الرئيسية وراء قيام الاتحاد السوڤييتى بوضع پاكستان فى قائمة الدول التى تنوى ضربها عسكريًا. وحينما غزا الاتحاد السوڤييتى السابق أفغانستان، كانت پاكستان المحطة التالية للجيش الأحمر. لعبت الهند على الجانب الآخر بورقة حركة عدم الانحياز ودعمت الغزو السوڤييتى لأفغانستان، وبرغم ذلك اكتسبت صداقة كلّ من واشنطن وروسيا فى فترة الحرب الباردة. وبمجرد انتهاء الحرب الباردة، كان المفكرون الغربيون والصناعات الدفاعية تتطلع لخصم جديد، كان الإسلام والمسلمون يعتلون قمة قائمتهم الخاصة بأعداء الغرب المحتملين. بدلاً من لوم العلماء الأمريكيين بسبب الإشارة بإصبع الاتهام إلى الإسلام، سوف نجادل بأن المسلمين مسئولون أيضًا عن هذا السلوك من جانب أهل الفكر الأمريكيين.

وخلال فترة الحرب الباردة أيدت الحكومات المسلمة والعلماء المسلمون الموقف المعادى للشيوعية للإدارات الأمريكية المتعاقبة، ولكنهم تجاهلوا تمامًا الحاجة لإشراك أمريكا فى توضيح تصور مشترك ومتبادل يحقق النفع لعالم ما بعد الشيوعية. لم يتخذوا فى هذا المنحى أى جهود جادة لتأسيس المنتديات من أجل قنوات هادفة للاتصال من أجل توليد الأفكار مع المثقفين الأمريكيين وجماعات الضغط الأخرى المتنوعة فى المجتمع الأمريكى التى كانت تشكل ـ بفعالية ـ الرأى العام الأمريكى ضد الشيوعية على مستوى القاعدة العريضة من الشعب. لم يقم المفكرون المسلمون ولا دوائر صنع السياسة المسلمة بتوضيح رؤية مشتركة للعالم (بحيث تكون قائمة على المصالح المشتركة والمتبادلة) فى عصر ما بعد الحرب الباردة. لم يقم العالم الإسلامى خلال الحرب الباردة بأية جهود جادة لتحديد طبيعة علاقته على أساس حضارى بالغرب بشكل عام، وبالولايات المتحدة بشكل خاص.

كانت العلاقة برمتها بين العالم الإسلامى والولايات المتحدة خلال الحرب الباردة، جملة وتفصيلاً، مثل زواج المصلحة، أو بشكل أكثر صراحة «مثل مشاركة ليلة واحدة». وبمجرد انتهاء الليلة، لم يكن هناك التزام طويل الأجل من أجل مستقبل مشترك قادم. أكثر أجزاء هذه الملحمة مدعاة للندم كان لامبالاة العلماء والمفكرين المسلمين ببناء شبكات تواصل مع المفكرين ورجال الإعلام والنشطاء الأمريكيين الذين

كانوا مندمجين فى تعبئة الرأى العام المحلى والعالمى ضد الشيوعية، وصناع الرأى العام الآخرين.

كانت هذه اللامبالاة من جانب العلماء المسلمين والحكومات الإسلامية باتجاه صناع الرأى العام الأمريكى وشبكاتهم أمرًا طبيعيًا. لقد كان لديهم معرفة ضئيلة بالديمقراطية الأمريكية. كانت فكرتهم الأساسية أن الحكومة الأمريكية قد عملت بالطريقة ذاتها التى عملت بها حكوماتهم. فى نظمهم السياسية (والتى تفتقر معظمها للديمقراطية) كان الحكّام هم الوحيدين الذين لديهم السلطة الشاملة لصنع كل القرارات. قرر الحكام المسلمون دائمًا السياسات بينما عملت كل مؤسسات النظام على تنفيذ تلك السياسات. لم يكن مسموحًا للجماهير فى أغلب الدول الإسلامية بمناقشة القرارات المتعلقة بالسياسات ولا كان لهم أى دور فى تشكيلها أو تنفيذها. لقد كان دورهم الوحيد هو الاستسلام والخضوع لإرادة من فى السلطة. ولهذا لم يشكل صانعو الرأى العام الأمريكى أية أهمية لهم. بالنسبة لهم، كان كل ما يهم هو البيت الأبيض، ووزارة الخارجية ومستشار الأمن القومى، وكبار الضباط العسكريين للولايات المتحدة.. إلخ. وبمجرد انهيار الستار الحديدى، تغيرت أولويات صناع السياسة الأمريكية. سقط إلى القاع العديد من الدول الإسلامية التى كان لها خلال الحرب الباردة أهمية استراتيجية عسكرية عليا للولايات المتحدة، وسرعان ما أصبحت إما متجاهلة أو منسية، أو أصبحت تُرى كمصدر للتهديد. وهؤلاء الذين أصبحوا يعدون كمصادر تهديد، أصبح من اللازم احتواؤهم. باكستان هى إحدى تلك الدول التى أصبح من اللازم احتواؤها فى الفكر الأمريكى فى فترة ما بعد الحرب الباردة. كان ذلك أمرًا مدعاة للسخرية؛ لأن باكستان هى التى قد وقفت فى عقد الستينيات من القرن العشرين بجانب الولايات المتحدة فى مواجهة الشيوعية وقدمت حتى أراضيها للقواعد العسكرية الأمريكية، مكتسبة عداء الاتحاد السوفييتى. ومرة أخرى، كانت باكستان هى التى وقفت بجانب الولايات المتحدة ضد الغزو السوفييتى لأفغانستان. على الرغم من ذلك، كانت باكستان هى التى عوملت بجفاء، بل وعانت من العقوبات على يدى واشنطن.

شوهت علاقات الحب ـ الكراهية التى أسستها واشنطن مع پاكستان والسياسات الأمريكية الناجمة عنها صورة أمريكا بين الجماهير الپاكستانية، الذين كان لديهم معلومات ضئيلة عن الطريقة التى يعمل بها النظام الأمريكى. إنهم حتى غير مدركين أمر فشل نخبتهم الحاكمة فى إشراك أمريكا فى علاقة بناءة ضمن إطار الديمقراطية الليبرالية الأمريكية، التى تشكل السياسة الخارجية الأمريكية. لقد استغل هذا الوضع من قبل عناصر خارجية لها أجندة عالمية لممارسة العنف والإرهاب. على الرغم من ذلك فلا يمكن إنكار حقيقة أن هناك عاملاً مهمّا فى هذا التغيير السريع للمزاج فى واشنطن، وهو الغياب الكامل لأى حوار فكرى، والذى كان من الممكن بشكل مقنع أن يؤسس لرؤية مشتركة للعالم يشترك فيها كل من الدولتين (پاكستان وأمريكا) فى المسألة النووية. إن هناك طرقًا لتعريف وتحديد وتوضيح وتأسيس وتقوية الالتزام برؤية مشتركة بين الدول، وخاصة مع الولايات المتحدة. إن هذا كان فشلاً سيئ الطالع من جانب پاكستان، كان من الممكن تجنبه.

ولهذا، فإن عدم قدرة العالم الإسلامى على العمل من خلال العملية الديمقراطية والهيكل الخاص بالحكومة والمجتمع الأمريكى، وتحديد رؤية مشتركة للعالم بشكل متسق مع الأهداف المشتركة مع مختلف جماعات صنع الرأى العام فى الولايات المتحدة (بغض النظر عن ميولها الديمقراطية أو الجمهورية أو المسيحية أو الليبرالية) كان بداية نهاية العلاقة الحميمة مع الولايات المتحدة لما يقرب من نصف قرن إبان فترة الحرب الباردة.

أسست بعض الدول الإسلامية المنتجة للبترول علاقاتها برمتها مع الولايات المتحدة على أساس افتراض أن الولايات المتحدة تحتاج لصداقتها بسبب البترول. وفى هذا خداع للذات. إنهم ينسون فى الوضع الحالى، أن قوة عظمى مثل الولايات المتحدة تكره أن ترى كرهينة للبترول، حيث إن لديها الطرق والوسائل للوصول إلى البترول. على تلك الدول البترولية الغنية أن تفكر مجددًا بشكل جاد بشأن سياستها الخارجية تجاه الولايات المتحدة، حيث سيتوجب عليها أن توضح رؤية مشتركة مع الولايات المتحدة بخلاف نموذج الاعتماد على البترول. وإذا أردنا التحدث بشكل صريح، يبدو أن اعتماد الولايات المتحدة على بترول الشرق الأوسط بات يرى بوصفه ضعفا فى المجتمع الأمريكى. لا توجد قوة عظمى عاقلة تحب أن تعتمد بشكل دائم على الدول الأجنبية

فى مثل هذا المورد الاستراتيجى. وعلى هذا، فإن البترول الذى ينظر إليه بعض صانعى السياسة العرب بوصفه الأساس للعلاقات الاستراتيجية بين العرب وواشنطن، ليس بفكرة إيجابية فى عيون الرأى العام الأمريكى. و بخلاف ذلك، فإنه لا يكاد يكون هناك على المستوى الشعبى أية أفكار، أو تصورات للعالم، ورؤية بناءة لمستقبل العالم. .إلخ، تكون عامة بين العديد من الشعوب الإسلامية وشعب ومفكرى الولايات المتحدة، والتى يمكن أن يتطلع إليها صناع الرأى العام الأمريكى فى بناء مستقبل مشترك والمشاركة فى جهوده وثماره.

يمثل هذا النقص فى الرؤية المشتركة طويلة الأجل، السبب الحقيقى لفقدان اهتمام صناع القرار فى الولايات المتحدة بالعالم الإسلامى، بشكل عام، فيما عدا بعض الاستثناءات المنفردة. بعد الحادى عشر من سبتمبر، كان قرار حكومة مشرف بتأييد أمريكا فى العمليات ضد الإرهابيين قد جعل من باكستان بشكل مفاجئ حليفًا لأمريكا ـ فى الحرب ضد الإرهاب. السؤال التريليون دولار هنا، هو أنه فى خلال سنوات قليلة حينما تنتهى الحرب، وتعود الأمور لطبيعتها، هل سيعود وضع باكستان مرة أخرى لما كان عليه قبل الحادى عشر من سبتمبر؟ أم سيتحسن؟ ليس علينا الاستعانة بقارئى الطالع للبحث عن جواب لهذا السؤال ، حيث إننا نعرف من هذه المناقشة أن الأمر كله يعتمد على نجاح البلدين فى الإعلان عن تصور مشترك عام للعالم فى مرحلة ما بعد الإرهاب.

ينبغى أن تتم دراسة تلك القضايا بشكل موضوعى لتطوير خطط وبرامج اجتماعية أطول أجلا، حيث يتم تبادل مستمر لوجهات النظر بين الأقسام المختلفة لكلتا الحضارتين للمشاركة فى تطوير تصور مشترك لمستقبل العالم من خلال النقاش المتبادل والتعاون المنتظم المستمر باتجاه تلك الغايات. سيكون من غير الواقعى افتراض أن الكثير من الحكومات المعاصرة للدول الإسلامية يمكن أن تقوم بهذا العمل. من يعتقد فى إمكانية إنجاز هذه الأمور فى نطاق الوضع الحالى للمجتمعات الإسلامية، ينقصه إدراك التحدى القائم بشأن التفاعل عبر الحضارى. قد يجادل البعض بأن الحوار المشترك عبر الحضارى أمر ضرورى ولكنه ليس كافيًا. حتى لإدارة حوار عبر حضارى ذى مغزى، فإنك تحتاج لعقل متفتح وللصبر والنضوج الفكرى لقبول وتقدير آراء الغير

حينما ينتقدونك بشكل صادق. الأكثر من ذلك، أنك نفسك تحتاج لأن تطور القوة المعنوية لتقدير ما هو جيد فيما يتعلق بـ «الآخر» وأن تكون قادراً وراغباً فى تصحيح أخطائك الخاصة و«آثامك» وبشكل غير متحفظ وصريح. ولهذا، بإيجاز كلى، لكى نكون طرفًا مؤهلاً للتنافس للحوار عبر الحضارى، فإن هناك متطلبات تتلخص فى الجدارة، والصبر والتسامح، وأخيراً الالتزام بقواعد اللعبة. وفى الحقيقة، تلك الشروط المسبقة ذاتها هى نتيجة ثانوية للديمقراطية الحقيقية، الأصيلة والمعاشة والمزدهرة. إن الدول التى تتحقق فيها هذه الشروط، للأسف، هى الاستثناء وليس القاعدة فى العالم الإسلامى المعاصر. كما قلت، الحوار عبر الحضارى هو مجرد ساق واحدة حينما نريد العالم أن يقدر «موقفنا» فى علاقة عبر حضارية، ولكن تذكر أنك لا تستطيع أن تقف على ساق واحدة طويلاً. ولهذا، يحتاج الحوار عبر الحضارى لأن يتوازن بشكل فورى بعوامل أخرى. تستحق مناقشة مفصلة لهذا الموضوع معالجة شاملة منفصلة ستكون فى وقت لاحق.

***